وكاد الامن يخل في المدينة الساهرة ، ووجدتني أنسى وظيفتي الرسمية وأسير في مظاهرات الناس الهاتفة ، حتى انتصف الليل ، وجاء الاذن لهم بالدخول . وتدافع الناس يعرضون ايواءهم .

وعدت ليلتها الى فراشي وقد خرجت القضية بالنسبة لي من الورق الى الواقع الحي . فقد لمست القضية بروحها ودمها ولحمها الحي . ولم يبرحني هذا الشعور منذ تلك الليلة قط . ولم تعد فلسطين بالنسبة لي ابدا موضوعا اناقشه بمجرد العقل البارد على الورق .

واذكر انني ليلتها تذكرت فتاة يهودية ، كانت أول فتاة احببتها في حياتي . وكلمة حب هنا كلمة كبيرة ، فقد كنت وقتها تلميذا في الرابعة عشر من العمر ، وكانت تكبرني بسنة تقريبا ، فهو تلك الصداقة التي نسميها ونحن غارقين فيها انها حب عنيف .

كان ذلك في الاسكندرية حيث كنت اسكن مع أهلي ، وفي السنوات الاولى للحرب العالمية الثانية . وكانت الاسكندرية بالذات في قلب المعركة . فهي أكبر قاعدة للاسطول البريطاني في البحر الابيض ، وبالتالي فهي من اكبر اهداف الغارات الجوية التي يشنها الطيران الالماني والايطالي .

كانت الطائرات غير الطائرات . لم تكن لها سرعة طائرات اليوم ، فكانت صفارات الانذار تدوي قبل وصول الطائرات بنصف ساعة . وكان النظام ان سكان الادوار العليا يهبطون بسرعة الى شقة الدور الارضي كمخبأ ، يتراكمون فيه ، وتصل الطائرات ، ونسمع صوت القنابل المتفجرة ساعات طوال ، والكشافات تجول في السماء حتى تقع على الطائرة ، ثم تنطلق المدافع المضادة للطائرات من البر ومن سفن البحر ، وكان هذا يستغرق ساعات ، ويصبح الصباح والقتلى بالمئات ، والدمار في انحاء المدينة ، والمواصلات مقطوعة . وهوايتنا جمع الشظايا ومقارنتها . وفرحتنا يوم دمرت مدرستنا عن اخرها فأخذنا اسبوعين اجازة حتى وجدوا لمدرستنا مبنى اخر .

وكان الحي الذي نسكن فيه اوروبيا ، كمعظم أحياء الاسكندرية في ذلك الوقت . وعرفت مع الحرب ان معظم السكان في الحي من اليهود . كبار السن منهم يتحدثون الاسبانية والشباب يتحدثون الفرنسية . وكان من السهل حتى لعقلي الصغير ان يتبين الفوارق في انماط الحياة . فالاسرة المصرية لا يعمل فيها الا الاب . اما جيراننا الذين هم احسن حالا منا ، ما ان تنتهي الدراسة حتى اجد البنات يعملن بائعات في المحلات والاولاد في سني يحملون بضائع خفيفة يبيعونها للمصطافين على الشواطىء . فيلبسون احسن وتصبح النقود في ايديهم اكثر ويسهرون فتيانا وفتيات في المحلات العامة ، وكنت ارى البيت المصري ينفق ماله في طعام لا اول له ولا اخر اما هم فيأكلون اقل ويخرجون ويلبسون ويتزينون .

وفي شقة الدور الارضي كانت « جريتا » وشقيقاتها الثلاث ينزلن . وفي البرد كانت تحضر معها « فروة » تفرشها على البلاط البارد وتدعوني للجلوس معها والالتصاق بها في الظلام الدامس . وفي غير ذلك نصعد الى سطح العمارة ذات الخمسة ادوار بحجة مراقبة الغواصات والقطع البحرية في ضوء القمر . وعرفت معها لاول مرة طريقي بمفردنا الى دور السينما والحدائق العامة .